المحاضرة الثانية: السرقات الأدبية

**مقدمة:**

يعد موضوع السرقات الأدبية من أهم المواضيع التي طرحها النقد العربي قديمه وحديثه وذلك لأنها تمكن الناقد من الوقوف على مدى أصالة الأعمال الأدبية ومقدار ما حوته من الجدة والابتكار، أو مبلغ ما يدين به أصحابها إلى سابقيهم من المبرزين من الأدباء من التقليد والاتباع. والحقيقة أن الاهتداء إلى نواحي الاتباع والابتداع يحتاج إلى الكثير من الفطنة والذكاء، وذلك لأن الحكم بالسرقة والابتكار يحتاج إلى سعة المعرفة بالأدب وفنونه واطلاع واسع على التراث الأدبي في سائر عصوره ومواطنه. ودراية بالغة الإنتاج المشهورين والمغمورين من الأدباء على السواء حتى يسهل ربط المتقدم بالمتأخر ويعرف السابق من اللاحق وحينئذ فقط يمكن الحكم بالتقليد أو التجديد.

مفهوم السرقة

لغة: تعرف السرقة في اللغة بأنها اسم "سرق منه الشيء يسرق سرقا، واسترقه: جاء مستتر إلى حرز، فأخذ مالا لغيره"[[1]](#footnote-1) وسرقة أخذ ماله خفية[[2]](#footnote-2).

وقد استعير المعنى الاصطلاحي من المعنى اللغوي ليدل على الفعل ذاته وهو السرقة

اصطلاحا: الأخذ من كلام الغير، وهو أخذ بعض المعنى أو بعض اللفظ سواء أكان أخذ اللفظ بأسره والمعني بأسره[[3]](#footnote-3).

أما بدوي طبانة فيقول: "السارق هو أن يعمد الشاعر إلى أبيات شاعر آخر فيسرق معانيها وألفاظها وقد يسطو عليها لفظا ومعنا ثم يدعي ذلك لنفسه[[4]](#footnote-4).

والواقع أن السرقات الأدبية في رأي الأستاذ أحمد الشايب أمر غير مستغرب "لأنه شائع في تضييق المسافة ومعروف في الآداب اللغوية كلها، وإن من شرعة الحياة العقلية أن تسمح به بل إنه من لوازم خطاها المطردة المتتابعة إلى غايتها المحتومة"[[5]](#footnote-5). ويدعم هذه الفكرة بدوي طبانة فيقول: "والواقع أن الشعراء على اختلاف أزمانهم وأماكنهم كانوا منذ القديم يستعينون بخواطر بعضهم وكان المتأخر منهم يأخذ عادة من المتقدم إما عن طريق الرواية أو بحكم التأثر والإعجاب والمطالعة"[[6]](#footnote-6).

السرقات الشعرية في النقد العربي القديم: السرقات الشعرية قضية شغلت حيزا كبيرا من الدراسة في كتب النقد القديم يتقدمها كتاب طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي وإن كان لم يعرض لها بنوع من التفصيل كما سنرى فيما بعد عند الجرجاني وابن طباطبا وابن رشیق، حيث عرض لها بصورة عابرة عند حديثه عن الشرقات التي حدثت في العصر الجاهلي فيقول: "وكان قراد بن حنش من شعراء غطفان، وكان جيد الشعر وقليله، وكانت شعراء غطفان تغير على شعره وتدعيه"[[7]](#footnote-7) كما فطن ابن سلام أيضا إلى أن اختلاف الرواية أحيانا يؤدي إلى فكرة السرقات" فبنو عامر تروي بيتا للنابغة الجعدي في حين أن بعض الرواة ينسبونه إلى أبي الصلت بن أبي ربيعة الثقفي[[8]](#footnote-8). كما تنبه ابن سلام أيضا إلى فكرة المعنى الذي تداول حتى استفاض وصار كالمشترك فهو يقول: "أن امرأ القيس سبق العرب إلى أشياء إلا ابتدعها استحسنتها العرب، واتبعته فيها الشعراء منه استيقاف صحبه والبكاء في الديار ورقة النسيب وقرب الأخذ، وشبه النساء بالظباء والبيض، والخيل بالعقبان والعصي وقيد الأوابد"[[9]](#footnote-9).

السرقات الشعرية عند ابن طباطبا (ت 322ه):

عرض ابن طباطبا في كتابه عيار الشعر إلى فكرة السرقات الشعرية وذلك من خلال تناوله لمحنة الشعراء المحدثين ملتمسا لهم العذر في هذا الباب فيقول: "لأنهم قد سبقوا إلى كل معن بديع، ولفظ فصيح، وحيلة لطيفة، وخلابة ساحرة"[[10]](#footnote-10).

ولا يبيح ابن طباطبا السرقة على إطلاقها أو تصنع المهارة في إخفائها، بل ينبغي على الشاعر ألا " يغير على معاني الشعر فيودعها شعره، ويخرجها في أوزان مخالفة لأوزان الأشعار التي يتناول منها ما يتناول، ويتوهم أن تغييره للألفاظ والأوزان مما يستر سرقته أو يوجب له فضيلة"[[11]](#footnote-11).

ويخرج ابن طباطبا بفكرة جديدة والتي تتمثل في التمرس بآثار السابقين لا نقلها أو محاولة السرقة منها، فابن طباطبا يطلب من الشاعر أن " يديم النظر في الأشعار لتلتصق معانيها بفهمه وترسخ أصولها في قلبه، وتصير مواد لطبعه، ويذوب لسانه بألفاظها، فإذا جاش فكره بالشعر، أدى إليه نتائج ما استفاده مما نظر فيه من تلك الأشعار، فكانت تلك النتيجة کسبيكة مفرغة من جميع الأصناف التي تخرجها المعادن، وكما قد اغترف من واد قد مدته سيول الجارية من شعاب مختلفة، وكطيب تركب من أخلاط من الطيب كثيرة، فيستغرب عيانه ويغمض مستنبطة"[[12]](#footnote-12).

لقد اجتهد ابن طباطبا في وصل قرائح المحدثين بمعاني سابقيهم بجهد يثبت فيه المحدث أصالته وقدرته على تطوير المعاني المألوفة أو صياغتها بما يخرجها من باب السرقة إلى باب التأثر والاستعانة

**لا تعجبي يا سلم من رجل** ضحك المشيب برأسه فبكى

**أخذه من قول الحسن بن مطير:**

**كل يوم بأقحوان جديـــــــــــــــــــد**  تضحك الأرض من بناء السماء

فقال: "تناول الشاعران المعاني التي قد سبقا إليها وأبرزاها في أحسن من الكسوة التي كانت عليها، ولذا وجب لهما فضل لطفها وإحسانهما فيما أخذا"[[13]](#footnote-13).

وتابع الصولي ابن طباطبا فيما ذهب إليه من إبداعات جديدة ابتدعها المحدثون، وكانوا مع ذلك يجيدون فيما يأخذون فيقول:" ولأن المتأخرين إنما يجرون بريح المتقدمين، ويصبو على قوالبهم، ويستمدون بلعابهم، وينتجعون كلامهم، وقلما أخذ أحد منهم معنى من متقدم إلا أجاده، وقد وجدنا في شعر هؤلاء معاني لم يتكلم القدماء بها، ومعاني أومأوا إليها، فأتي بها هؤلاء وأحسنوا فيها"[[14]](#footnote-14).

وهكذا نلاحظ أن الصولي يقر بالأخذ عن السابقين، لكن شريطة التميز والإجادة وفي نفس الوقت يرى أن المحدثين كانوا مبدعين لمعاني ما عرفها القدماء.

**السرقات الشعرية عند القاضي الجرجاني (ت366):**

وقف الجرجاني عند هذه الفكرة وهو بصدد الحديث عن العيوب التي رمى خصوم المتنبي شعره بها وهي السرقة، فيؤكد أن موضوع السرقة من الأمور التي يعز تبينها إلا على الناقد البصير المميز، يقول: " وليس كل من تعرض له أدركه، ولا كل من أدركه استوفاه وأكمله"[[15]](#footnote-15)، ومن ثم فإن الوقوف على السرق الحقيقي وتمييز أصنافه وتبیین رتبه ومنازله من أبرز ملكات الناقد الجهبذ يقول: "ولست تعد من جهابذة الكلام، ونقاد الشعر، حتى تميّز بين أصنافه وأقسامه وتحيط علما برتبه ومنازله، فتفصل بين السرق والغصب، وبين الإغارة والاختلاس، وتعرف الإلمام من الملاحظة، وتفرق بين المشترك الي لا يجوز ادعاء السرق فيه، والمبتذل الذي ليس أحد أولى به، وبين المختص الذي حازه المبتدئ فملكه، وأحياه السابق فاقتطعه، فصار المعتدي مختلسا سارقا والمشارك له محتذيا تابعا.[[16]](#footnote-16)

كما يؤكد الجرجاني أن السرقة داء قديم لم يسلم منه شاعر إذ " مازال الشاعر يستعين بخاطر الآخر، ويستمد من قريحته ويعتمد على معناه ولفظه"[[17]](#footnote-17).

كما يرى أن الشاعر المحدث يجد نفسه مضطرا إلى تناول معاني سابقيه، ومن ثم يدعو الناس إلى التماس العذر ونفي المذمة عنه فيقول: "ومتى أنصفت علمت أن أهل عصرنا، ثم العصر الذي بعدنا أقرب فيه إلى المعذرة، وأبعد من المذمة، لأن من تقدمنا قد استغرق المعاني وسبق إليها ، وأتي على معظمها ... ومتى أجهد أحدنا نفسه وأعمل فكره وأتعب خاطره وذهنه في تحصيل يظنه غريبا مبتدعا، ونظم بيت يحسه فردا مخترعا، ثم تصفح عنه الدواوين لم يخطئه أن يجده بعينه، أو يجد له مثالا يغض من حسنه، ولهذا السبب أحظر على نفسي، ولا أری لغيري، الحكم على شاعر بالسرقة"[[18]](#footnote-18). وهو بذلك يدافع عما زعم أن المتنبي سرقه فيحشد لذلك مجموعة كبيرة لأشعار الآخرين تمثلها المتنبي وحذا حذوها، ويضرب لنا أمثلة عن السرقة الممدوحة عن طريق الاختصار أو الزيادة في المعنى أو صنعة اللفظ وصحة السبك أو القلب أو تأكيد المعنى ومن أمثلة ذلك تفضيله لقول أبي تمام:

ذريني وأهوال الزمان أعانها فأهواله العظمی تليها رغائبه

على جميع الشعراء الذين سبقوه إلى هذا المعنى لأنه "لأنه زاد بأن حقق درك البغية وحصول المراد لا محالة...فلابي تمام فضيلة التأكيد، وأن الغرض الحث على تجشم الأهوال في الطلب، فكلما ازداد الكلام تأكيدا كان أبلغ"[[19]](#footnote-19).

كذلك يضرب لنا أمثلة عن السرقة القبيحة وهي التي تكون باللفظ والمعنى والقافية.

هذه جملة الآراء التي توصل إليها الجرجاني في باب السرقات، فكان أن أفاد من أفكار سابقيه كما ابتكر بعض الآراء كالتفصيل في أنواع السرقات.

السرقات الشعرية عند ابن رشيق القيرواني (ت456):

وقف ابن الرشيق عند السرقات الشعرية في باب مستقل من كتابه العمدة وهو ما سماه بـ

"باب السرقات وما شاكلها" وأيضا كتابه قراضة الذهب. وأول ما يبدأ به ابن رشيق كعادته في طرح القضايا النقدية أن يطلعنا أولا على آراء النقاد الذين سبقوه من أمثال الحاتمي، الجرجاني، النهشلي، ثم بعد ذلك يبدأ بعرض وجهة نظره في الموضوع ويرى أن السرقة أنواع:

سرقة اللفظ مع المعني سرقة المعنى مع تغيير اللفظ سرقة تعتمد على تغيير بعض المعنى أو قلبه على وجهه حتى تخفيه.

ومن هذه الأنواع الثلاثة تتولد تفريعات عديدة لأوجه السرقات يعددها ابن الرشيق في العمدة ويعرف بها ويأتي لها بالأمثلة والشواهد، من ذلك (الاصطراف والانتحال والإغارة والغصب والمرادفة والاهتدام والإلمام والاختلاس والعكس والمواردة والتلفيق..) ومن الأمثلة التي أوردها ابن رشيق في معالجته لهذه القضايا: الاصطراف: هو أن يعجب الشاعر ببيت من الشعر فيصرفه إلى نفسه فإذا ساقه متمثلا فقط به على سبيل التضمين فهو اختلاب واستلحاق، أما إذا ادعاه لنفسه فهو انتحال فمن الاجتلاب قول عمرو ذي الطوق:

صددت الكأس عنا أم عمرو وكان الكأس مجراها اليمينا

**وما شر الثلاثة أم عمــــــــــــــــرو بصاحبك الذي لا تصبحينا**

**فاستلحقهما عمرو بن كلثوم في قصيدته المعروفة. وأما الانتحال فكما قال جرير:**

إن الذين غدوا بلبك غـــــادروا وشلا بعينك لا يزال معينـــــــــا

غيضنا من عبراتهن وقلن لي ماذا لقيت من الهوى ولقينا؟

فإن الرواة كما يقول ابن الرشيق:" مجمعون على أن البيتين للمعلوط السعدي، انتحلهما جرير[[20]](#footnote-20).

والإغارة: هي أن "يضع الشاعر بيتا ويخترع فيه معنى مليحا فيتناوله من هو أعظم منه ذكرا وأبعد صوتا فيروي له دون قائله كما فعل الفرزدق بجميل وقد سمعه ينشد:

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا فقال الفرزدق: متى كان الملك في بني عذرة إنما هو في مضر وأنا شاعرها فغلب الفرزدق على البيت"[[21]](#footnote-21).

"وأما الاختلاس: فيمثل له بقول أبي نواس:

ملك تصور في القلوب مثاله فكأنه لم يخل منه مكان

ويرى ابن رشيق بأنه مختلس من قول كثير عزة:

أريد لأنسى ذكرها فكأنـــــــــــــــــــــما تمثل لي ليلى بكل سبيل[[22]](#footnote-22)

ويمضي ابن رشيق في ذكر هذه الأنواع ثم يعرض بعد ذلك إلى فكرة المعاني المبتكرة والمبتدعة إذا تناولها المتبع تناولا جيدا فهو أولى بها فيقول: "والمخترع معروف له فضله متروك له من درجته، غير أن المتبع إذا تناول معنى فأجاده فهو أولى به من مبتدعه"[[23]](#footnote-23).

وذلك يكون بعدة أساليب كأن يختصر المعنى إذا كان غامضا، أو يعيد صياغته بأسلوب جيد أو بتغيير الوزن إذا كان جافيا، ويمثل على ذلك بقول أبي نواس:

أقول لناقتي إذ بلغتنـــــــــــــــي **لقد أصبحت مني باليميــــــــــــن**

فلم أجعلك للغربان نحلا ولا قلت: (أشرقي بدم الوتین)

فقد أخذه من قول الشماخ:

وإذا بلغتني وحملت رحلي غرابة فاشرقي بدم الوتين

وبهذا نلاحظ كيف استطاع أبو نواس أن يعيد النظر في المعنى المخترع الذي جاء به الشماخ فأصبح بذلك أولى به. أما أحسن السرقات وأشرفها فهي عند ابن رشيق حل المنظوم ونظم المنثور مثلما صنع أبو العتاهية في قول أرسطوطاليس" (وقد كان هذا اشخص واعظا بليغا وما وعظ بكلامه عظة قط أبلغ من موعظته بسكوته)

فنظم ذلك أبو العتاهية في قوله:

وكانت في حياتك لي عظات فأنت اليوم أو عظ منك حيا"[[24]](#footnote-24)

هذه بعض الأفكار التي صاغها ابن رشيق حول موضوع السرقات الشعرية، وهي في الجملة لم تخرج عما أتى به والجرجاني والنهشلي وغيرهما ممن تناولوا هذا الموضوع وذلك أن السرقة لا تكون إلا في البديع المخترع الذي اختص به شاعر بعينه، وإن كان ابن رشيق أكثر تفصيلا لأنواعها خاصة وأنه أورد الكثير من المصطلحات في هذا الباب.

والحق أن نقادنا القدماء قد أدركوا ضرورة استرفاد الشاعر بتجارب الآخرين ولأجل ذلك نظر بعضهم إلى سرقات المعاني ليست من كبير مساوئ الشاعر وهذا ما يؤكده الآمدي قائلا: "إن سرقة المعاني ليست من كبير مساوئ الشعراء وخاصة المتأخرين، إذ كان هذا بابا ما تعرى منه متقدم ولا متأخر"[[25]](#footnote-25) كما يقول أيضا أبو هلال العسكري مؤكدا هذه الفكرة: "وقد أطبق المتقدمون والمتأخرون على تداول المعاني بينهم، فليس على أحد فيه إلا إذا أخذه بلفظه كله أو أخذه فأفسده وقصر فيه عمن تقدمه"[[26]](#footnote-26).

1. [↑](#footnote-ref-1)
2. [↑](#footnote-ref-2)
3. [↑](#footnote-ref-3)
4. [↑](#footnote-ref-4)
5. [↑](#footnote-ref-5)
6. [↑](#footnote-ref-6)
7. [↑](#footnote-ref-7)
8. [↑](#footnote-ref-8)
9. [↑](#footnote-ref-9)
10. [↑](#footnote-ref-10)
11. [↑](#footnote-ref-11)
12. [↑](#footnote-ref-12)
13. [↑](#footnote-ref-13)
14. [↑](#footnote-ref-14)
15. [↑](#footnote-ref-15)
16. [↑](#footnote-ref-16)
17. . [↑](#footnote-ref-17)
18. [↑](#footnote-ref-18)
19. [↑](#footnote-ref-19)
20. . [↑](#footnote-ref-20)
21. [↑](#footnote-ref-21)
22. [↑](#footnote-ref-22)
23. [↑](#footnote-ref-23)
24. [↑](#footnote-ref-24)
25. الآمدي، الموازنة، تح: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، 1961، ج1، ص291. [↑](#footnote-ref-25)
26. أبو هلال العسكري، الصناعتين، تح: مفید قميحة، ط1، دار الكتب العلمية بيروت، 1981، ص218. [↑](#footnote-ref-26)